الحبُّ في عزّ الغربة...

عمار بلحسن

اليها : فضيلة المهاجرة السمراء

التي لم تجد وطنها بعد . .

****

(١)

جالسة تحت عينيّ . .

حزينة تأتي منها روائح الوطن . .

تأملتها سمراء ، قمحية بلون سنابل السهول التي أخذتني منها البابور ذاك الصباح المضبب ، وفي شراييـنهـا حكايا الشـوق والنـار والانوثة .

وعيونها تسلبني كل طفولتي . . صافية كسماء قريتي !

جزائرية . . بنت البلاد . .

عرفتها في عز الغربة . . في شوارع المدن العاطرة هناك حيث اللهاث خلف الخبزة والبحث عن الوطن .

تلك البلاد بعيدة . .

يسمع عنها الاحباب يتخيلونها نبعا من الاوراق المالية ثم يبكون لانهم يتذكرون مرارة البعد والغربة !

لكم ودعوا أخا أو أبا مهاجرا اليها يرحل قبل الفجر حاملا حقيبته الجزائرية . . مضمخا بالاحلام .

العمل ، الشهرية ، السكن ، الاضواء ، البنات ، الزهو !

مرفوقا بالادعية والوصايا :

« فرنسا غولة يا وليدي . . عينك على نفسك ! »

« لا تنسى الاحباب . . اخوتك . . تذكر دائما . . تلقى الخير » .

في بوابة القرية يأخذ بيضتين . . فأل خير ، ويحتضن الاهل ثم يأكله الافق . . نقطة متوترة مرسومة على كل القلوب . .

****

اقتربت منها . . امسكت خصلة من شعرها . . قالت :

- جئت زائرا أم مهاجراً ؟

داعبت كفّها . .

- أرى مدن الغربة . . وأعود . .

ابتسمت . .

- جميل . . رائع . . ستعود أما نحن . .

لم تتمم . . في عينيها . . بعيدا في الاغوار . . دمعات حزينة . . لا ريب انها تهرب من ماض مظلم . . ليس ماضيها على الاطلاق . .

فضيلة . . لا تخجلي . . سنبحث أنا وأنت عن شكل الوطن نعمره اشجارا واطفالا يكركرون على مطلع كل شمس !

(٢)

تسألني :

- متى تعود ؟

- حين اشتاق لطفولتي واحبائي . . ربما تأخذني البابور غدا .

غداً . . آه فضيلة ! . .

قولي لي هل أعود بكل هذا الحزن ؟ هذه المدن التي تنشر اضواءها مظلمة .. أكل هذه الاضواء غير كافية ؟.

أعود .. تأخذني الموانىء منك .. وتبقين وحيدة .. حزينة في دوائر الغربة المؤبدة ..

سأسكر .. لأجتاز كل الاميال البحرية التي تفصلني عنك .. لكن أتستطيع حانات الجزائر اطفاء حرائقك ؟

أهمس لها :

- فضيلة .. في مدن الغربة .. نصبح ككلاب الصيد .. نتشمم روائح الوطن عبر كل الازقة والرؤوس والثياب والكلمات ..

- انك تؤلمني .. لا استطيع العودة !

- العفو .. لم اقصد ذلك ..

تسأل بلهفة ..

- الجزائر جميلة ..

- جميلة ولكن عمرنا لا يكفي ..

آه .. فضيلة .. وجدت فيك الوطن .. فحين تصبح الحبيبة صدرا نهاجر اليه .. تزهر كل احلامنا وحكايانا الصغيرة .. نتذكر طفولتنا ونغني كالحصادين ..

(٣)

تحكي المها ..

في سنين الهلع والاعدام بالجملة .. هاجرنا . حملتنا مدمرة حربية ، كنت رضيعة .. لم اشرب حليب الوطن بعد ..

أبي .. يحكي لنا دائما .. تدمع عيناه .. يتذكر قريته وأحباءه .. آه اني حزينة ..

في حلقها غصة .. وخجل كبير ..

ابي .. ابي .. كان حركيا ..

آه .. هذا الذل الذي نحْمله تاريخا اسودا فوق اوراقنا ..

ذاك الصباح كنت ذاهبة .. ما زلت أدرس .. اتعلم حرفة .. نحن بين نارين .. لا الوطن يقبلنا ولا هذه البلاد تحبنا ..

كانت المدرسة تسأل ..

- جاكلين .. جورجيت .. مارلين .. كلهن فرنسيات وانت فضيلة ؟ مت من الخجل .. تحديتها بكل الالم الذي أحمله :

- جزائرية .. أحمل جنسية استعمارية ..

« الفرنسيين المسلمين »

آه .. صعب أن تجد نفسك بلا وطن .. تحمل هوية أخرى .. لا تعرف شكل بلادك .. من القرية الى هنا .. اتعرف كثافة الحزن حين تودع جبال الوطن ؟ تبتعد .. فيتكثف الاحباب والتراب والميناء في نقاط سوداء سرعان ما يبتلعها البحر !

(٤)

حركي !

وما معنى حركي ؟

حركي :

« ان تبيع وطنك بكسرة خبز وشهرية استعمارية !

ان تبحث عن أحبائك الذين حملوا البندقية وصعدوا الى الجبل »

لكن ليس كل من لبس الكاكي باع وطنه !

أبي : كان فلاحاً . . يحرث قطعته . يقهره القايد صباح مساء .

الثورة العسكر . الجنود . الذبح . البيعات . والناس كالكرة . في الليل . الفدائيون . وفي النهار العسكر . ومع من تذهب ؟

لم يكن مناضلا . كان فلاحا . لم يعرف الوطن ألا خبزا وقطعة ارض .

اعطوه اكثر . فهرب من قهر القايد . وحمل البندقية ضد قريتة . أصبح حركيا !! قلت لها . كانت تحكي ماضيها :

ـ الحركة خونة . فعلوا الكثير !

ـ كلهم .

ـ لا هناك من ذهب مع الريح . لم يقتل أو يعذب حشرة . هرب من الفقر . وكل ثورة كانت هكذا . لا بد من الفوز . من كان ربا . يموت تحت اقدام الفقراء !

ـ اذن ؟

ـ لماذا لا تعودون . سأكتب شكوى لوطني !

(٥)

فضيلة . الوطن ليس ترابا . الوطن انسان طيب . متواضع . يسلمك الروح دفاعا عن كلمة . عن ارض . عن حبيبة !

ـ لماذا لا تعودين ؟

قلت لها . كان المساء . يمتد رداء حزينا فوق مدينة الغربة . وقفنا . عصرت كفها قالت :

ـ سانتظرك !

قلت :

ـ سأبعث لك الوطن في كل الرسائل .

همست بحب :

ـ لا تنسي بطاقات البريد !

كنا عصفورين غريبين نهبط الى شوارع الوداع الماطرة .

آه فضيلة ! سترين كل بلادك . المدن . القرى . الشواطىء . الكلمات . سأهديك الوطن مجزءا . مرسوما على كل بطاقات البريد . لكن . هل اعود غدا بكل هذا الحزن ؟

لا اعرف . . فضيلة . . لا اعرف . .

هل سأبكي أم أكتب شكوى ؟

(٦)

شكوى !

وطني . عرفتك دائما فلاحا متسامحا . يحب الخير . ويسلمك الروح دفاعا عن قطعة ارض . عن شرف.عن كلمة .

وطني . عرفتك دائما عاملا بسيطا . يأخذ غداءه المتواضع ويقتسمه مع الرفاق . هل تقدم لي حليب الحب مرة اخرى فتسمع لفضيلة عاشقتك المهاجرة بالعودة ؟

اني انتظر !

فرنسا ديسمبر١٩٧٦